مكتبة النجف
قسم الدوريات

حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

غير مصرح باعارتها من المكتبة

العدد الأول
١٤٠١هـ - ١٩٨٠م

بين الدعوة السلفية والدعوة الفولانية

الدكتور
محمد عيسى عبد الظاهر

خـــلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري – الموافق النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي – ماج العالم الإسلامي بيقظة إسلامية واعية ، كان مركزها الموطن الأول للدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية على يد الإمام « محمد بن عبد الوهاب » ؛ بدعوته السلفية ؛ وواكبتها واقتفت آثارها خلال القرن نفسه دعوات أخرى منها :

الدعوة الفولانية : هناك على أرض « إفريقية » في حزام السافانا في السودان الغربي على يد « الشيخ عثمان دان فوديو الفولاني » .

وكان لدعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » أثرها وصداها الواسع في العالم الإسلامي كله ؛ وكان لدعوة الشيخ « عثمان دان فوديو » أثرها وصداها المحلي في غرب إفريقية ، في أرض السودان الغربي والأوسط .

وتأتي هذه الدراسة لتعالج ثلاثة جوانب من هذا الموضوع :

الجانب الأول : التعرف على معالم الدعوتين من حيث :

ا — الإطار الزمـــاني ، والمكاني لهما .

ب — مراحل الجهاد ، والنتائج ، والآثار التي حققتها كل من الدعوتين .

ثم على ضوء هذا الجانب نحاول أن نلقي الضوء في :

الجانب الثاني : على بعض المقارنات بين الدعوتين من حيث : بعض وجوه الشبه ، ووجوه الاختلاف بينهما ، وفي :

الجانب الثالث : لنبين بعض مناحي التأثير في « الدعوة الفولانية من « الدعوة السلفية » .

ولعله يتمهد لنا بعد دراسة هذه الجوانب وعلى ضوئها أن نستشرف — بنظرة متأنية فيما بعد — على مسار الدعوة الإسلامية المعاصرة في إفريقية ، على ضوء هاتين الدعوتين ، نتبين من خلالها أي المناهج والسبل أقوم لهـــا .

التعرف على معالم الدعوتين

١ — دعـــوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب »

وتبدأ مع مطالع القرنين الثاني عشر الهجري ، والثامن عشر الميلادي ؛ فقد ولد الإمام « محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي » (١) سنة ١١١٥ هـ ، الموافق سنة ١٧٠٣ م ، في بلدة « العيينة » الواقعة شمال الرياض ، بإقليم العارض بنجـــد .

وكان أبوه « عبد الوهاب بن سليمان » من علمائها ، ويشغل منصب القضاء فيها زمن « عبد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن معمر » ؛

(١) عيون المجد في تاريخ نجد حـ ١ ص ٨٩ . تأليف المحقق عثمان بن بشر . الناشر مكتبة الرياض بالرياض وانظر « سيرة الإمام محمد بن عبد الوهاب » ص ١٧ وما بعدها . تأليف أمين سعيد . ط أولى شركة التوزيع العربية ببيروت .

ونشأ ابنه « محمد بن عبد الوهاب » في رعايته ، فتعهده بالتعليم والتربية ؛ ودرس له مبادئ العلوم الإسلامية المعهودة من الفقه الحنبلي ، والتفسير ، والحديث ثم بدأت مواهبه تتفتح ، ونهمه يزداد لطلب العـــلم ،

واتجهت عنايته إلى كتب شيخ الإسلام « ابن تيمية » ، وتلميذه « ابن القيم » — رحمهما الله تعالى — وبدأ الرحلة في طلب العلم ؛

وكانت أول وجهة له بيت الله الحرام بمكة المكرمة ، فأدى فريضة الحج ، وبعدها اتجه إلى « المدينة المنورة » واستقر بها بعض الوقت ، يأخذ العلم من بعض علمائها ، ومنهم : الشيخ « عبد الله بن إبراهيم بن سيف » الذي وصـــله بالمحدث الشيخ « محمد حياة السندي » ، وعرفه به ، فأقام عنده ، وأخذ عنه ، وتوثقت الصلة بينهما .

ثم توالت رحلاته في طلب العلم ، فتوجه إلى « نجد » ، ثم إلى « البصرة » (١) وفيها درس العلم على جماعة من علمائها ، وخلال إقامته بها كتب كثيراً من المباحث النافعة ، ونشر من علمه النافع ، وآرائه القوية في محاربة البدع والخرافات ، مما كان سبباً في تحرج موقفه هناك ، واضطراره للخروج منها قاصداً الشام ، غير أنه قفل راجعاً لضيق النفقة ؛ فأتى « الإحساء » . ثم توجه إلى « حريملاء » من قرى نجد ، حيث لازم أباه مشتغلاً بالعلم ؛ ومع اشتغاله بالعلم ، وعلى ضوء ما رأى في تجواله كانت اهتماماته بما رأى من أحوال المسلمين في نجد ، وفي غيرها من البلاد ، التي دخل إليها حيث رأى من الفساد في العقيدة ، والضلال في العادات ، والفسوق في السلوك ما حرك همته ، وأثار غيرته على حرمات الله — عز وجل — فعقد العزم على القيام بالدعوة إلى الله تعالى ، وردّ الأمة إلى شرعة الله ، ومنهلها الصافي وكان البدء في بلدة « حريملاء » .

ولم تكن السبيل ممهدة ، بل مع البدء بالدعوة كانت المتاعب والصعاب ، والجهاد ، إذ مات والده سنة ١١٥٣ هـ ، ولم يثنه ذلك عن المضيّ في دعوته ؛ واشتد به الأذى ، فغادر « حريملاء » إلى « العيينة » مسقط رأسه ، ولاحقته العداوات ، وأخرج من بلده .

(١) أنظر « لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب » ص ١٧ وما بعدها . تحقيق الدكتور أحمد مصطفى أبو حاكة دار الثقافة ببيروت .

ونزل بالدرعية سنة (١١٥٨ هـ – ١٧٤٥ م) وهناك كان لقـاء رجل الدعوة الإمـام « محمد بن عبد الوهاب » برجل الدولة الأمير « محمد بن سعود » وكان اللقاء لله ، والتعاهد على نصرة دينه (١) .

وبدأت دعوة الإمام مرحلة جديدة ، إذ توالت عليه الوفود ممن ينشدون العلم ، والهداية على يديه ، وكاتب رؤساء البلدان النجدية ، وقضاتها بمضمون دعوته ، وطلب نصرتها ، وواصل جهاده في نشر الدعوة باللسان ، وبالقلم .

ومع اشتداد الدعوة ، كان اشتداد خصومها ؛ ولم ير الرجلان – رجل الدعوة ، ورجل الدولة – بدًّا من الجهاد بالسيف ، مع الجهاد باللسان والقلم ، ودخلت الدعوة بذلك مرحلة شديدة استمرت سنين عديدة في جهاد مستمر ، وكانت الحروب بينها وبين الجبهات الكثيرة سجالاً ، بين مد وجزر .

وفي سنة ١١٧٩ هـ توفي الإمام « محمد بن سعود » ، وبويع بالإمامة ابنه « عبد العزيز ابن محمد بن سعود » ، وعلى يديه تم للدعوة فتح « الرياض » سنة ١١٨٧ هـ .

وتوالت الأحداث ؛ حتى كانت سنة ١٢٠٦ هـ اختار الله إلى جواره الكريم عبده المجاهد الداعية الإمام « محمد بن عبد الوهاب » .

ولم تتوقف الدعوة ، بل سارت ؛ وأصبح الحجيج يفدون إلى الحج في ظل الدعوة ودولتها وحمايتها ، ويستمعون إليها ويتعرفون عليها ، وتناقلتها الأخبار ، وحملتها الركبان إلى إفريقية ، وآسيا ، وانتشرت في الهند ، وسومطرة وما جاورها ، وفي العراق ، والشام ، وعمان ، وفارس ، ومصر ، وشمال إفريقية ، وبلاد السودان ، ومازالت تمد رواقها شرقاً وغرباً ، عقيدة وفكراً ، وسلوكاً ، والتزاماً بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

والإمام « محمد بن عبد الوهاب » سلفي العقيدة ، والوسيلة ، والغاية (٢) ؛ فقد درس

(١) انظر « الدولة السعودية الأولى » ص ٥٢ وما بعدها ، للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . ط جامعة الدول العربية .

(٢) انظر مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب . أشرفت عليها جامعة الإمام محمد بن سعود . انظر القسم الأول والقسم الثاني بمجلديه .

مباديءُ الإسلام على علماء نجد ، ثم أوغل في الدراسة في كتب السلف الصالح وفي مقدمتهم إمام أهل السنة الإمام « أحمد بن حنبل » ثم من بعده شيخ الإسلام « ابن تيمية » وتلميذه « ابن القيم » ، عن فهم وتأثر ، مما طبع فيه روح الإصلاح فضلاً عن استعداده ومواهبه لذلك.

وهو في دراسته هذه لم يكن مجرد الطالب الذي يختزن العلم في رأسه ليتكاثر به ، أو يتفاخر ، أو يجادل جدلاً عقيماً لا طائل وراءه ، وإنما كان على نهج أصحاب رسول الله ﷺ. ما تعلم شيئاً إلا وشرع في تطبيقه ؛ ونسوق على ذلك مثلين من حياته : أولهما : في مرحلة الشباب حين طلبه العلم ، وثانيهما : في مرحلة الشيخوخة والضعف ؛

أما الأول : فعندما كان في المدينة المنورة يطلب العلم ، كان يسمع بعض الاستغاثات والأدعية ، التي تتنافى مع قواعد الإسلام وآدابه ، عند قبر الرسول ﷺ فقال لشيخه « محمد حياة السندي » : ما تقول يا شيخ في هؤلاء ؟ فأجابه على الفور :

(إنَّ هؤلاءُ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فيهِ وَبَاطِلٌ ما كانوا يَعملون) (١) .

ولم يكن سؤاله للاستفهام ، وإنما للتقرير والبيان .

وأما الثاني : فحين كان – رحمه الله – قد بلغ من الكبر عتياً ، وثقل جسمه ، ومع ذلك كان يخرج لصلاة الجماعة ، يتهادى بين رجلين ، حتى يقام في الصف ، وله من العمر نحو اثنتين وتسعين سنة .

وبهذا ترى مدى التزام « الإمام » في أول حياته وآخرها سواء ، لم يتغير ولم يتبدل .

ولقد سارت دعوة « الإمام محمد بن عبد الوهاب » ومازالت تسير ، تشع بمبادئها على كل حركة أو يقظة إسلامية ، ويمكن أن نجمل مراحلها فيما يأتي :

المرحلة الأولى : « مرحلة الدعوة والبلاغ » : لقد بدأ « الإمام » بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدرس ، والتعليم ، والتوجيه والإرشاد ، ولاقى ما لاقى في سبيل ذلك .

(١) انظر « عيون المجد في تاريخ نجد » حـ ١ . ص ٧ . تأليف عثمان بشر .

وكان من الممكن أن تتوقف الدعوة عند هذه المرحلة ، وتتحول إلى جهاد فكري باللسان والقلم ، وتثرى المكتبة الإسلامية بمزيد من تراث الإصلاح ، لكن كانت نقطة التحول في تاريخها ومسارها ، وتحولها من التقوقع على الجانب الفكري والدوران حوله ، إلى الانطلاق والقيادة والبناء والتغيير ، هو ما اختاره الله تعالى لها من رجل الدولة الذي آزرها ، فتحولت بذلك إلى :

المرحلة الثانية : وهي مرحلة الجهاد : وفيهاواجهت الدعوة قوى معادية شديدة وعنيدة، من الداخل في أرض الجزيرة ، ومن خارج أرض الجزيرة ؛ وحاربت في جبهتين معاً هما :

الجبهة الفكرية : التي بلغت من عنفها أن حاولت طمس معالم الدعوة ، ورميها بالبعد عن حقيقة الإسلام ، وحاولت تشويه وجهها الصحيح أمام عامة الأمة الإسلامية وخاصتها ، وألصقت بها كثيراً من التهم ، التي استنفذت كثيراً من الجهد لتصحيحها ، وقد كان ، وأصبح التراث الفكري لها علماً من أعلام النهضة الإسلامية المعاصرة .

الجبهة العسكرية : وعلى صعيدها كانت الحرب سجالاً ، وانتهت بالنصر وبدخول الدعوة مرحلة جديدة وهي :

المرحلة الثالثة : مرحلة الدولة ، التي حملت راية الدعوة ، وأمانة تطبيقها ، وبرزت في العالم الإسلامي منارة ، طالما كان ينشدها المصلحون ، وأعادت إلى أرض الدعوة صفاء العقيدة ، وأمن الحياة ؛ وانتشرت كأشعة الشمس على آفاق العالم الإسلامي ، وأصبح من لم يحس بدفئها لا يعدم أن يستضيء بشعاعها على دروب الإصلاح .

٢ ــ الدعـــوة الفولانية : دعوة « الشيخ عثمان دان فوديو الفلاني » :

أما معـــالم وطن الدعوة الفولانية ، فيشمل بلاد « الهوسا » وبعض الأقاليم المجاورة لها ، وهي تشكل جزءاً من سهل من حزام « السفانا » في غرب إفريقية ، في هذه البقعة المحصورة في طرف المعمورة ، على حدّ قول الأمير « محمد بل » (١) .

(١) انظر « إنفاق الميسور » لمحمد بل . ص ٢٨ .

ويحده من الشمال الصحراء الكبرى ، ومن ورائها الشمال الإفريقي حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط ؛ ومن الجنوب امتداد إقليم السفانا ، يليه إقليم الغابات الإستوائية بمستنقعاته حتى ساحل المحيط الأطلسي ، عند خليج غانا .

ومن الشرق إقليم بحيرة تشاد ، ومن ورائه دارفور ، ثم حوض النيل حتى ساحل البحر الأحمر .

ومن الغرب نهر النيجر الأوسط ، ومن ورائه مواقع أوطان الممالك الإسلامية القديمة « صنغى ، ومالي ، وغانة » حتى حوض السنغال إلى المحيط الأطلسي .

وهو بهذا الموقع في منطقة وسط ، يعد مركز التقاء مؤثرات وتأثيرات شتى ومتباينة ، تتوافد عليه من جهاته الأربع .

وقد امتد إليه خلال العصور الإسلامية نفوذ سلسلة من الدول أو الإمارات الإسلامية ، فسيطرت عليه امبراطورية أو أكثر مثل مالي ، وصنغى من الغرب ؛ ومثل بورنو من الشرق(١) فكان ينتمي إليها ، فرعاً منها ، لفترات متقطعة ، وتأثر بها ، وأثر فيها .

ولقد ظلت هذه المواقع خلال تاريخها تشتهر برخائها الاقتصادي ، نظراً لموقعها الجغرافي ، باعتبارها مركزاً تجارياً ، ومحطة للقوافل ، وبخاصة فيما بين القرن الخامس عشر م والتاسع عشر . م .

وإذا كانت الصحراء لم تمنع وصول الإسلام وحضارته من الشمال إلى هذه المنطقة ، فإن جنوب نهر النيجر — من هضبة فوتا جالون ، إلى سلسلة جبال الكاميرون — كان منطقة أحراش ، ومستنقعات ، وغابات كثيفة ، ورطوبة مستمرة مع المطر الغزير ، وهي بهذا كله كانت معوقاً لتسرب المد الإسلامي ، عن الوصول إلى الجنوب حتى الساحل ، مما بقى معه كثير من القبائل على الوثنية مثـــل « المصى ، واليوروبا ، والإيبو » حتى كان قيام الدعوة « الفولانية » بعبء الدعوة إلى الإسلام ، والجهاد في سبيله ، لتصحيح عقيدة المسلمين ، وعادات المجتمع الإسلامي هناك ، والعمل في حقول ومجالات الوثنية لتبديد ظلامها ،

(١) انظر « جغرافية الإسلام » ص ٤٠ وما بعدها للدكتور عبد العزيز كامل .

ومطاردتها بدعوتها إلى الإسلام ، وإدخالها تحت رايته ، فتسربت العادات والتقاليد الإسلامية عن طريقها وجهادها في بعضها مثل « اليوروبا والنوبي » .

في هذا المناخ ، والمكان ، وهذه البيئة ظهر الشيخ « عثمان دان فوديو الفولاني » في النصف الثاني من القرن الثاني عشر هـ – النصف الثاني من القرن الثامن عشر م – واسمه : عثمان ، ولقبه : الشيخ ، واسم أبيه : محمد ، ولقبه فودى – أي الفقيه – .

وبهذا الاسم ، وذاك اللقب اشتهر هكذا « الشيخ عثمان دان (١) فودى » وجده : عثمان بن صالح ، فهو : « عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح بن أيوب بن هرون »

وينتمي الشيخ عثمان إلى « التوردب» أخوال الفولانيين ، وبهم امتزجوا ، وغلب عليهم اسم الفولاني .

جاء أجداده الأولون من « فوت تور » إلى بلاد الهوسا ، في القرن الخامس الهجري ، ومن هذه السلالة من بيت منها هو بيت « عال » ولد الشيخ « عثمان » في أواخر صفر عام ١١٦٨ هـ ، الموافق ديسمبر سنة ١٧٥٤ م ، لأبوين صالحين ؛ ببلدة « طقل » وهي قرية صغيرة بأرض « غوبر » شمالي نهر صكتو .

وقد اشتهر بيت « عال » في قبائل « الفولاني » بالصلاح والخير ، والعلم والريادة وحفظ القرآن الكريم ، رجالاً ونساء ، أصولاً وفروعاً .

ووسط هذه البيئة نشأ « عثمان » على التربيه القويمة ، والخلق الحسن ، فأولع منذ صغره بالعبادة ، والعلم معاً ، حتى كان يلقب بذي النورين : العلم ، والعمل .

طلب العلم صغيراً ، وجدّ ودأب في طلبه ، وتحمل المشقات في الرحلات – داخل المنطقة – في سبيله ، حتى ألم من كل فروع المعرفة الإسلامية بطرف .

وتعدد شيوخه ، واختلفت مشاربهم وإتجاهاتهم ، فوقفه ذلك على كثير من ألوان ومناهج ، وأهداف السلوك العلمي ومدارسه ، والعملي ومناهجه . ولم يزل في الاجتهاد في طلبه ، والرحلة في سبيله ، في بلاد السودان الغربي ، حتى صار شيخاً يقتدى به ، وانتهت

(١) كلمة « دان » معناها : ابن .

إليه الرياسة ، والإمامة في بث العلوم ، حتى صار منتجع الرواد ، ورافع لواء العلم والدين هناك ، فأحيا السنة ، وأمات البدعة ، ونشر المعرفة .

ولم يكن الشيخ « عثمان » بالعالم الذي يصب مسائل العلم والوعظ في رءوس تلاميذه وأتباعه صباً مجرداً ، خالياً من التأثير ، بل كان مع الدرس المؤثر « **مربياً** » يتعهدهم خلقاً وسلوكاً ، ولم يكونوا من قبيلة واحدة ، وبذلك لم تجمعهم عصبية لقبيلة معينة ، بل رحم العلم وإخاء الدعوة .

وكانت دعوته في وطنها تصادم كل الشئون المنافية للإسلام ، من عادات وغيرها ، فكانت دعوته إلى المسلمين لتصحيح إسلامهم ؛ وإلى غير المسلمين للدخول في الإسلام ، وإلى المجتمع لإقامة شرعة الإسلام فيه ، رعاة ، ورعية .

وكان صدام الملوك والحكام بها صداماً قوياً وعنيفاً ، مرة بالتخويف والوعيد ، وأخرى بالكيد ، والمؤامرة ، لعزل الشيخ ومنعه وجماعته عن كل نشاط ، وطمس معالمهم المميزة من « عمامة » للرجال ، و « خمار » للنساء ، ثم الاحتكاك بهم بالإذلال والمصادرة .

وكان « الشيخ » وجماعته يلجأون إلى الهجرة ، بحثاً عن أرض طيبة ، تكون مقراً حصيناً للدعوة .

وانتهى الأمر بملوك بلاد « الهوسا » بتظاهرهم جميعاً بالعداوة على الشيخ وجماعته(١) ودعوته ، وتعاقدوا على استئصالها واستئصالهم ، وانقطعت حبال الأمن والسلام بينهما ، وانتهى الشيخ وجماعته في هذه المرحلة إلى قرار المواجهة بالجهاد بالسيف ؛ إذ اجتمع وجماعته وأتباعه ، وتشاوروا في أمرهم ، واتفقوا على مبايعة « الشيخ عثمان » على السمع والطاعة ، إماماً وأميراً لهم ، وبايع هو على اتباع الكتاب والسنة ، ولقبوه بلقب « أمير المؤمنين » .

وبدأوا مرحلة من الجهاد طويلة وشاقة ، ومع كل خطوة كانوا يحكمون أساس البناء للدولة الإسلامية هناك ، تحت إمرته ، ابتداء بالتنظيم على أساس إسلامي من الشورى ، واختيار الولاة ، حتى قامت « الدولة الفولانية الإسلامية » على أنقاض ممالك « الهوسا »

(١) انظر « إنفاق الميسور » ص ١٠٠ لمحمد بل .

وكان لقيامها دور إسلامي كبير في السودان الغربي ، في تثبيت دعائم الإسلام بين المسلمين ، ونشر دعوته بين الوثنيين .

والشيخ « عثمان دان فوديو » كان مذهبي العقيدة ، والوسيلة والغاية(١) :

فهو في الأصول على مذهب « الأشاعرة » وفي الفروع على مذهب « مالك » وفي الطريق على طريقة « الجيلانية » .

وقد تأثر بشيوخه المعاصرين تأثراً مباشراً وعن قرب ، كما تأثر بكثير من الشيوخ الذين قادوا حركات إصلاحية في السودان ، تأثراً مباشراً كذلك ، وإن كان على البعد ، وكانت تنزعهم منازع صوفية .

وعلى رأس من تأثر بهم الإمام « المغيلي » الذي كان يسبقه بثلاثة قرون ، كما يبدو ذلك من دراسته لكتبه ، وتأثره بمنهجه في الإصلاح ، حتى ليقول : « قد وقعنا — بحمد الله تعالى — على بعض تواليفه — أي المغيلي — وانتفعنا بها » وهو كثيرا ما ينقل عن « المغيلي » ، و« السيوطي » وغيرهما من أئمة المالكية ، والصوفية .

والشيخ « عثمان » حين تبدو عليه إتجاهات سلفية ، وصوفية ، وإصلاحية ، وغيرها إنما يرجع إلى تنوع المنابع التي استقى منها ، وإلى تعدد جوانب المجتمع التي كانت في حاجة إلى إصلاح بالتربية والتعليم ، والجهاد ، والرد إلى الكتاب والسنة ، فكان كالطبيب أمام عدة أدواء ، يطب لها بالجراحة والشراب والكي والرقية ، ولهذا يبدو من كتاباته الاتجاه التقليدي ، والتجديدي معا ، والملتزم والمجتهد أحياناً ، وهكذا يبدو للمتتبع بالدراسة آثار الشيخ « عثمان » — دروساً مدونة ، ومؤلفات ، وكذا متابعة تاريخه ، ودعوته ،

(١) انظر « إفحام المنكرين » مخطوط . ص ١ ، ٢ .
وانظر « إحياء السنة وإخماد البدعة » وانظر « حصن الأفهام » ، وانظر « سوق الأمة » ، وانظر « أصول الدين » ، وانظر « عمدة العلماء » ، وانظر « شمس الإخوان » ، وكلها للشيخ عثمان دان فوديو .

وجهاده ، وحركته الإصلاحية ، والدولة الإسلامية التي أقامها في السودان الغربي — أنه تنزعه عدة منازع ، يبدو طابعها بارزاً على قسمات فكره ، وحركته .

يبدو ذلك من تأثره الكبير بالمذهب « المالكي » والاتسام بطابعه الملتزم ، ورفضه لكثير من آراء المقلدين ، ونعيه على البدع ، والأوهام ، وحماسته في الدعوة إلى رد الأمور إلى الكتاب والسنة ، ويبدو ذلك أيضاً في نزعته « الصوفية » وما كان لها من جذور عميقة ، في مجتمع هو أحد أبنائه المتأثرين به والمؤثرين فيه ، فقد التقت في نفس الشيخ ، وفكره ، ودعوته ، وحركته تيارات سلفية ، وصوفية ، ومذهبية ، وإصلاحية .

ويتخذ له قدوة وسلفاً من شيوخه المعاصرين مثل « جبريل بن عمر » و « عثمان بن بدور » ومن السالفين . مثل « السيوطي » و « المغيلي » .

وفي الجانب الفكري ينقل كثيراً في مؤلفاته عن علماء المغرب ، وإفريقية ، فضلاً عما ينقله بكثرة عن « السيوطي » .

فكان نموذجاً للمصلح الداعية المجاهد الذي أقام بجهاده دولة للإسلام والمسلمين في غرب إفريقية .

مقـــارنة بـــين الدعـــوتين

من حيث وجوه الشبه ، ووجوه الاختلاف بينهما

في حقل الدعوة :

من الدعائم الأساسية لنجاح الدعوات ، وما تقدمه من علاج مثمر للمجتمع هو التشخيص الدقيق للداء ، وتلك هي المرحلة الأولى للعلاج ، تتلوها مرحلة الطب لنفس الداء ، والسير في تنفيذه ، وتصور الطبيب ، والداعية بنفسه وتفهمه لحقل عمله ، ولمسه مواطن العلة فيه حرى بنجاحه ، ووصوله للغاية أكبر من تصوير غيره له .

وتصور رجل الدعوة هنا — ممثلاً في كل من الإمام « محمد بن عبد الوهاب » و « الشيخ عثمان دان فوديو » — لمواطن العلة في مجتمع كل منهما ، والتي ضمنها كل منهما دروسه ، ومؤلفاته ، هو العمدة لنا هنا في عرض صورة صحيحة لكل من المجتمعين .

ومن الملاحظ أن عرض كل من الداعيتين لصورة مجتمعه يكون مقروناً دائماً ببيان حكم الإسلام فيها ، حسبما بينه الله تعالى لنا ، وبينته سنة نبيه الخاتم ﷺ ، وفهمنا من كلام أئمة الهدى ، من سلفنا الصالح – رضوان الله عليهم أجمعين – .

صورة لمجتمع الدعوتين :

مجتمع « نجد » ، ومجتمع « السودان الغربي » (١) :

سيطرت على كل من المجتمعين أوضاع دينية ، وسياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، عاشا فيها ، واستمدت هذه الأوضاع سلطانها عليهما ، وقدسيتها فيهما من الجهل بالدين ، مما ورثهما مفاهيم دينية مضطربة ، وخاطئة في معظمها ، وتقاليد عميقة الجذور ، احتلت من نفوس الناس وعقولهم في كلا المجتمعين قداسة ليست لها بأهل ، فضلاً عن عزلة نفسية وفكرية طوت كلاً من المجتمعين على نفسه ، فظل يتآكل بحروب قبلية طاحنة ، وأوضاع سياسية ، واجتماعية بالية ، وكان الإسلام على جانب ضئيل من حياتهما ؛ وكان لابد من تغيير لهـــذا كله . . .

وكان لابد لهذا التغيير من التصدي لكل جوانبه ، بمنهج سليم واضح ، ووسائل كريمة . . كرامة الهدف الذي تهدف إليه ، ومن وراء ذلك قلب مؤمن ، وعقل ناضج ، ونفس تتميز بالجرأة في الحق والغيرة عليه ، والدعوة إليه من غير ملل ، ولا كلل ، ولا خنوع ، أمام ما يجد من أنواع الكفر والفسوق والعصيان ، وأمور بالغة مطبقة ، حتى لا يكاد يوجد من صح إيمانه أو تعبده إلا النادر ، فلا يوجد في الغالب الأعم من يعرف التوحيد على حقيقته ، أو يحسن العبادة على وجهها .

نظرة الإمام محمد بن عبد الوهاب إلى مجتمع الدعوة (٢) :

لقد تنقل الإمام « محمد بن عبد الوهاب » في أرجاء نجد ، والحجاز ، والشام ، والعراق ،

(١ ، ٢) انظر مؤلفات الشيخ الإمام « محمد بن عبد الوهاب » القسم الأول . العقيدة والآدب الإسلامية ، وانظر « سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب » ص ٤٨ ، وما بعدها .

ووقف على أحوال العامة وعقائدهم ، وعلومهم ، ورأى كثيراً من المنكرات الأثيمة ومظاهر الشرك البواح ، رأى — ضمن ما رأى — من يؤله القبور ، وبعض الغيران والأشجار ، وصرف بعض العبادات إليها ، كالنذر ، والحلف ، والنحر ، والاستعانة ، والاستغاثة إلى غير ذلك مما لا ينبغي صرفه إلا لله ، وأنكر ذلك على فاعليه ، وبين لهم أن العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر ، ومن صرف منها شيئاً لغير الله يكون مشركاً .

ونهى عن التوسل المبتدع بالذوات الصالحة وغيرها ، ونهى عن ذلك بالدليل ، وحرم البناء على القبور وكسوتها وتعليق الستور عليها ، وإسراجها والكتابة عليها ، وإقامة السدنة حولها وزيارتها الزيارة الشركية ، التي تنجم عنها مفاسد عديدة ، وأمر بهدم القباب المشيدة ، وأنكر البدع والمحدثات في الفروع ، كالاحتفال بالمولد ، والتذكير قبل الأذان ، كما أنكر طرائق الصوفية المبتدعة ، وأقر بكرامات الأولياء إلا أنهم لا يستحقون من حق الله شيئاً ، ولم يكفر أحداً من المسلمين بذنبه ، ولا أخرجه من دائرة الإسلام ، وقد وقع بينه وبين من دعاهم إلى ذلك كثير من الخلافات .

بين الإمام حكم الإسلام في هذه الأمور وغيرها ، وبين مدى بعد الكثير منها عن الإسلام وحقائقه ، سواء في شئون العقيدة والعبادات ، أو في أمور الشرائع والعادات والأخلاق ، وقد ضمن ذلك والعلاج له دروسه ومؤلفاته ، وكان جهاده لرد هذه المجتمعات إلى ربها .

وسوف نجد صورة لهذه المجتمعات هناك بعيداً في أرض إفريقية مما يدل على مدى ما وصل إليه حال الأمة الإسلامية من بعدٍ عن دينها .

نظرة « الشيخ عثمان » إلى مجتمعه :

نظر « الشيخ عثمان » إلى مجتمعه نظرة شاملة ، على ضوء حقائق الإسلام ، وسلك في دعوته على أساس هذه النظرة وهو في دروسه ، تعليماً ووعظاً ، وفي أكثر من مؤلف له يشير إلى فئات مجتمعه في بلاد « الهوسا » مقسماً لهم إلى ثلاث فئات ، ويذكر وهو يقدم الأسس التي يبني عليها أحكام بلاد الهوسا فيقول (١) .

(١) انظر « نور الألباب » ص ١ ، « وشفاء العليل » ص ١ ، ٢ مخطوط ، وكلاهما للشيخ عثمان دان فوديو ، وانظر « مفتاح السودان » مخطوط لمحمد بل ، ص ٢ .

« اعلم يا أخي أن الناس في هذه البلاد ثلاثة أقسام :

١ — قسم منهم يعمل أعمال الإسلام ، ولا يظهر منه شيء من أعمال الكفر ، ولا يسمع منه شيء يناقض الإسلام ، عارفون بالتوحيد ، محسنون للعبادة ، فهؤلاء مسلمون قطعاً ، تجرى عليهم أحكام الإسلام ، وهم نادرون .

٢ — وقسم منهم ما شم قط رائحة الإسلام ، ولا يدعيه ، فهؤلاء كافرون أصليون قطعاً ، ولا يلتبس حكمهم على أحد .

٣ — قسم مخلط يعمل أعمال الإسلام ، ويظهر أعمال الكفر ، ويسمع من قوله ما يناقض الإسلام ؛ فهؤلاء كافرون ، مرتدون قطعاً ، لا تجرى عليهم أحكام الإسلام .

و ... بعض مظاهر هذا الخلط بقوله (١) :

« فمنهم من يزعـــم أنه مسلم يعمل أعمـــال الإسلام ، وهو مع ذلك يعظم الأشجار بالذبح عندها ، والصدقة ، أو بصب العجين عليها ، أو تعظيمها باللجوء إليها في سؤال الحوائج عندها ، وهذا شيء علم فيهم ضرورة ، وبخاصة في رؤسائهم وملوكهم ، ولا ينكرها إلا الجاهل بحالهم أو المعاند ، وهي كفر ، لأنها عبادة غير الله تعالى قطعاً ، من حيث التعظيم المذكور ، لأنه تعظيم خاص بالله تعالى ، وكل من عبد غير الله تعالى فمشرك كافر ، بإجماع المسلمين .

ثم يستطرد في تقسيم الشرك إلى خمسة أقسام ، ويبينها على الوجه التالي :

١ — شرك الاستقلال كشرك المجوس .
٢ — شرك التبعيض كشرك النصارى .
٣ — شرك تقليد كشرك أواخر الجاهلية .
٤ — شرك تقريب كشرك أوائل الجاهلية .

(وهذه الأربعة كفر)

٥ — ثم شرك الأسباب ، وهو إسناد الفعل والتأثير على سبيل الحقيقة إلى الأسباب العادية .

(١) انظر « تعليم الإخوان » مخطوط ص ٧ . للشيخ عثمان دان فوديو .

وهذا القسم لا خفاء في أنه فسق ، وبدعة ، وإنما الخلاف في كفره .

ثم يسوق قسماً سادساً هو : شرك الأغراض المسمى « الرياء » ، والشرك الأصغر ، وهو العمل لغير الله تعالى ، وهو فسق ، وليس بكفر بإجماع .

ثم يبين أن نوع الشرك الذي كان عليه ملوك تلك البلاد . ومن تبعهم هو شرك التقليد أي « النوع الرابع » ويقول (١) :

« ومنهم من يزعم أنه مسلم يعمل أعمال الإسلام ، ومع ذلك يكذب ببعث الأموات ، ويقول : لا بعث بعد الموت ، أو يستهزيء بدين الله ، ويستهزيء بالتائبين ، والمتواضعين ، وبالنساء اللائي تحجبن عن الرجال الأجانب .

« أو يزعم أنه يعلم شيئاً من علم الغيب بالخط في الرمل ، أو بأحوال النجوم ، أو بأخبار الجن أو بشيء من أصوات الطير أو بحركاتها ، أو غير ذلك ؛ أو يأتي إلى الكهان ، ويسألهم عن أمره ، ويصدقهم فيما يقولون ، أو يطرح القطن أو غيره على الحجارة في الطريق ، أو تحت الأشجار ، أو مجتمع الطريقين ، أو غير ذلك من المواضع التي يطرحون ذلك عليها — وهي أنواع من السحر ، تستعمل للنفع أو الإضرار حسب زعمهم — بعد أن يقرأوا عليها شيئاً من التعاويذ ، كما كان السحرة قديماً يضعون ذلك في قاع بئر أو غيره .

« أو يضع ثوباً أو طعاماً أو غير ذلك على قبر الولي ، أو العالم ، أو العابد ، على طريق النذر ، ويظن لجهله أنه يوفي نذره .

« أو يزين القرآن بضرب الدفوف ؛ أو يكتب أسماء الله تعالى ، أو القرآن العظيم على الأعيان النجسة ، مثل عظام الميتة ، ورءوس الكلاب ، أو يكتبها بدم مسفوح من الذبائح ، أو يكتبها ويغسلها بالماء ، ثم يفرق أجزاء ثوب الحية ويخلطها به » .

والشيخ عثمان إذ يوضح هذه الأصناف ، نجده يحترز من أي مبالغة ، فيذكر(٢) محترزاً أن من يعمل أعمال الإسلام ، ولم يظهر منه شيء من أعمال الكفر ، ولم يسمع منه

(١) « نور الألباب » ص ٣ للشيخ عثمان دان فوديو . بتصرف .

(٢) « نور الألباب » ص ٦ . للشيخ عثمان دان فوديو .

ما يناقض الإسلام ، فلا يجوز لأحد أن يقول عنه إنه « كافر » ، بحجة أنه يعتقد الكفر في قلبه ، إذ لا سبيل لنا إلى الاطلاع على ما في قلبه

وكذلك لا يقال لمن يعمل الكبائر إنه « كافر » فهذا باطل ، لأنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب ؛ ويمضي في بيان الأحكام التفصيلية المتعلقة بهذه الأمور كلها ، ثم يقول :

« وبناء على ذلك ، فإن من فعل شيئاً من تلك الأفعال الموجبة للتكفير يستتاب ، فإن تاب ترك ، وإن لم يتب قتل بالسيف كفراً ، ولا تسترق أولادهم ، وأما ما وجد من أموال نهبوها من المسلمين ، فلرب المال أخذه حيث وجد بغير شيء ؛ لأن الذي نهبه الكافر وهو يزعم أنه مسلم ، ليس كما نهبه الكافر الأصلي ، وأما ما نهبه المسلمون منهم فليس لهم أخذه فهم يردون ولا يرد إليهم . . . الخ » .

وإذا نظرنا بعد هذا — أو قبل هذا — إلى حقل الدعوة ، ومجالاته الذي كان يجاهد فيه الإمام « محمد بن عبد الوهاب » بلسانه ، وقلمه ، وسيفه ، لوجدت الصور متطابقة ، والداء واحداً ، كامناً في تعكير صفو التوحيد ، وتعطيل شرائع الإسلام وأخلاقه ؛ وأن العلاج كذلك واحد ، وهو : تخليص عقيدة التوحيد من شوائب الوثنيات ، والشرك كبيره وصغيره وهو الأمر الذي أقام عليه الإمام « محمد بن عبد الوهاب » دعوته وجهاده ، وسارت على نهجه وخطاه حركات الإصلاح والتجديد بعده .

ولعلنا بعد عرض هذه الصورة نتساءل : ما هي وجوه الارتباط بين الدعوتين ؟ .

وقبل أن نجيب على هذا التساؤل نحب أن ننبه إلى حقيقة كانت قائمة ، وبارزة في العالم الإسلامي ، خلال الإطار الزمني للدعوتين : هذه الحقيقة هي :

أولاً : أن العالم الإسلامي كان في حالة موات ، أصاب المسلمين فيها ركود وضعف ، في أكثر مجالات الحياة ، دينية وسياسية ، واجتماعية ، أفراداً ومجتمعات .

ثانياً : وأن سبب هذا الانهيار هو الهوة السحيقة ، والفجوة العميقة التي كانت بين

المسلمين ودينهم ، وبخاصة في أصل الأصول كلها وهو التوحيد ، وما شابه من تخليط وأباطيل وأوهام ، وظهرت آثار ذلك في كثير من المظاهر والعادات والتقاليد ، التي احتل كثير منها مكان القداسة .

ثالثاً : أنه لم يكن هناك من علاج إلا بالتغيير الجذري ، بدءاً من إصلاح العقيدة أولاً ، وذلك بالعودة بالمسلمين إلى منابع الإسلام الصافية : الكتاب ، والسنة .

رابعاً : وأن ذلك العلاج لم يكن بالأمر السهل ، وإنما كان طريقه شاقاً وطويلا ، وفي حاجة إلى داعية يقود المسلمين بصدق ، وفهم ، وإخلاص ، لا يخشى في الله لومة لائم .

خامساً : وقد كانت دعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » — وما تلاها مقتفياً آثارها — هي كالشمس التي سطعت على هذا الظلام المتراكم فبددته ، وأضاءت للمسلمين طريقهم ، على هدى من الكتاب والسنة ، على تفاوت بينها في القرب والبعد ، ووجوه الاتفاق والاختلاف .

من وجوه الاتفاق بين الدعوتين :

١ — أن كلتا الدعوتين قامتا في ظروف متعاصرة ومتشابهة . من حيث إن المجتمع الإسلامي في مجال كل منهما كان قد دبت فيه انحرافات كثيرة وخطيرة ، في العقيدة ، والتشريع والسلوك الإسلامي الصحيح ، فكانت وحدة الداء والأمراض بادية .

٢ — وأن كلاً من « الإمام » و « الشيخ » بدأ جهاده من حلقة العلم والتدريس ، وطوف ببعض البلدان الإسلامية ، ينشد العلم من علمائها ، ويطلع على مدى حاجة المجتمع إلى إصلاح إسلامي شامل .

٣ — ومن حلقة الدرس إلى الجهاد بالقلم تأليفاً ، وبياناً ، وتوجيهاً ، وخلف تراثاً فكرياً مدونا لأصول الدعوة ومناهجها وغاياتها ، ومن حلقة العلم إلى ميدان المعارك بالجهاد بالسيف .

٤ – وأن جهاد كل من الدعوتين قام على تحالف « رجل الدعوة » « ورجل الدولة » في صف واحد ، في الجهاد والهدف ، وانتهى بإقامة « دولة إسلامية » تقيم شرعة الله في مجتمعها ، وتحاول أن تمتد بالجهاد فيما حولها ، على تفاوت بينهما .

٥ – كان للدعوة « السلفية » – ومازال – آثارها المحلية والعالمية ، بفكرها وسلطانها ، قدوة ومبعث يقظة للأمة الإسلامية .

وكان للدعوة « الفولانية » آثارها المحدودة ، فيما جاورها من مجتمعات ، وظلت محتفظة بتأثيرها حتى غلبت عليها القوى الاستعمارية في المنطقة هناك ، وكادت تصبح تاريخاً لا واقعاً .

من وجوه الاختلاف بين الدعوتين :

١ – كان الإمام « محمد بن عبد الوهاب » في الأصول « سلفيا » عقيدته هي عقيدة السلف الصالح ، وهي ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، والتابعون ، والأئمة المهتدون ، وكان في الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل إمـام أهل السنة (١) . وتراثه واضح في ذلك .

وكان « الشيخ عثمان » في الأصول « أشعري » المذهب ، وفي الفروع « مالكي » المذهب ، وفي الطريق سالكاً طريق « الجيلانية » ، ومن أئمتها في السودان ، وهو مغرق في التصوف ، شأن أهل المنطقة هناك ، وقد اتسمت مؤلفاته بكثير من هذا الطابع ، مما يتنافي كثير منه مع الاتجاه السلفي .

٢ – وأن دعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » نشأت سلفية ، وظلت سلفية ملتزمة ؛ أما الدعوة « الفولانية » فقد نشأت إصلاحية مذهبية ، ولو أنها تأثرت كثيراً بالمباديء السلفية ، ودعت إليها ضمن ما تأثرت به من الاتجاهات .

(١) انظر مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب . القسم الثاني : الفقه . المجلد الأول والثاني .

٣ ـ أن حقل العمل للدعوة « السلفية » بدأ في مجتمع إسلامي ، في داخل الجزيرة كان قد شرد كثيراً عن عقيدة الإسلام وشريعته ، وكان جهاد الدعوة فيه لرده إلى العقيدة الصحيحة والشريعة السمحاء ، وأنها أخذت هذا السمت طوال جهادها في الجزيرة العربية ثم خارجها .

أما الدعوة « الفولانية » فكان حقل عملها مزدوجاً : إذ كانت تعمل في حقل المجتمع الإسلامي الشارد ، لرده إلى العقيدة الصحيحة والشريعة السمحاء ، وكانت تعمل كذلك في حقل المجتمع « الوثني » في السودان الغربي ، لدعوته إلى الإسلام ، ومطاردة الشرك والوثنيات فيه .

٤ ـ وأن الدعوة « السلفية » ودولتها استمرت ـ ومازالت ـ مستمسكة بأصولها ، ووسائلها وغايتها ، وأنها جاوزت أرض الجزيرة إلى آفاق كثيرة من العالم الإسلامي ، وبخاصة في إفريقية ، وكان لها الأثر الواضح في حركات الإصلاح التي تلتها .

وأن الدعوة « الفولانية » انقسمت دولتها بعد الشيخ « عثمان » إلى إمارتين ، غلب عليهما فيما بعد الطابع السياسي ، حتى كادتا أن تنتهيا بدخول الاستعمار الإنجليزي ، في مطلع القرن العشرين ، والذي أتي على آخر مظهر سياسي لها ، بعد دخول المنطقة « نيجيريا » في عصر الانقلابات السياسية ، في النصف الثاني من القرن العشرين ، وكادت تذهب معالم الدعوة نفسها ، كما ذهبت معالم دولتها « الفولانية » إلا من بعض أشكال سياسية باقية .

مناحي التأثير والتأثر

في الدعوة الفولانية من الدعوة السلفية

هل تأثرت « الدعوة الفولانية » بالدعوة السلفية : دعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب»؟.

لاشك أن الباحث يجد كثيراً من وجوه الشبه بين الدعوتين في الهدف والوسائل ، والمراحل

والنتائج ، مع فضل سبق للدعوة السلفية ، وسعة مجالاتها في العمل والتأثير ، مما يدعو إلى هذا التساؤل : هل تأثرت الدعوة الفولانية بدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب السلفية ؟ وإلى أي مدى كان ؟ .

وهذه القضية مع أهميتها يحيط بها كثير من الغموض والحدس ، ولمحاولة علاجها هنا نطرح الفروض التالية ، ونناقشها ، ثم لننظر ما تفضي إليه من نتائج :

الفرض الأول :

الاتصال المباشر بين الإمام « محمد بن عبد الوهاب » والشيخ « عثمان دان فوديو » عن طريق الحج أو غيره ، وعن طريق هذا الاتصال تم التأثير ، وهذا الفرض لا يصح – تاريخيا – فلم يحدث لقاء بينهما ، ولم يدع واحد منهما هذا اللقاء ، بل ولا واحد من الباحثين أياً كانت هويتهم ، عربا أو غير عرب ، مسلمين أو غير مسلمين ، ولم يثبت في أي مصدر أو مرجع ، ولو ادعاه أحد فليس لدعواه نصيب من الصحة .

الفرض الثـــاني :

اتصال الشيخ « عثمان » بدعوة الإمـــام « محمد بن عبد الوهاب » في موطنها اتصالاً مباشراً ، عن طريق الحج أو غيره ، ومتابعته لها ، وتأثره بها ، وعودته بنتاج هذا التأثر إلى موطنه والعمل بمقتضاه في أرض السودان .

وهذا الفرض وارد ، لكن اختلف فيه بين مؤيد ومعارض ، على الوجه التالي :

١ – أما المؤيدون ؛ فعلى رأسهم « توماس أرنولد »(١) فإنه ينسب الشيخ عثمان إلى الاتجاه السلفي في فكره ، ودعوته ، وجهاده ، ويؤكد : أنه قد ذهب إلى مكة المكرمة للحج ، وعاد من هناك متأثراً في ذلك بمباديء « الوهابيين » – كذا – الذين كانت قوتهم آخذة في النماء ، في الوقت الذي زار فيه مكة للحج ، وساق « توماس أرنولد » على ذلك شواهد من هذا التأثر :

إن الشيخ « عثمان » عاد من هناك مليئاً بالحماس والغيرة ، من أجل الإصلاح ، والدعوة

(١) انظر كتابه « الدعوة إلى الإسلام » ص ٣٦٠ . ترجمة د / حسن إبراهيم وآخرين . ط . النهضة المصرية .

إلى الإسلام ، وأنه أخذ ينكر تعظيم من مات من الأولياء ، وأنه هاجم في نفس الوقت رذيلتين كانتا منتشرتين في السودان ، وهما : شرب الخمر ، وفساد الخلق .

هذا وقد تابع « أرنولد » على ذلك ، وأخذ بهذا الرأي كثير من الكتاب الغربيين ، مثل « جونستون » وغيره .

ومن العرب : الدكتور « حسن محمود »(١) ، والدكتور « عبد الرحمن زكي »(٢) وغيرهما ، والأستاذ الدكتور « محمد البهي » يذهب إلى ذلك أيضاً ويؤيده ، بل ويذهب إلى أبعد من ذلك فيذكر(٣) عن الشيخ « عثمان » — على ضوء ما كتبه الشيخ عثمان نفسه في كتابيه : « إحياء السنة ، وحصن الأفهام » : أنه من أنصار الحركة السلفية ، وأنه أحد القلة من العلماء الذين تتلمذوا على كتب « ابن تيمية » ، بعد أن اتصلوا بها في مكة ، عن طريق الإمام « محمد بن عبد الوهاب » ، وأن « عثمان » أحد الخلفاء المبرزين في القرن الثامن عشر م لابن تيمية ، الذين تتلمذوا في مدرسته ، تلك المدرسة التي يسر أمرها إليهم الداعية المصلح « محمد بن عبد الوهاب » ؛ وعده ثاني اثنين من أصحاب الحركة السلفية ، من بين هؤلاء القلة في إفريقية ، وأما الآخر فهو « محمد بن على السنوسي » الكبير (١٢٦٧ هـ — ١٨٥٩ م) في شمال إفريقية ، وأن الحركة السلفية في إفريقية مدينة لهذين العالمين . . . الخ .

٢ — مناقشة هذا الفرض ، والتعقيب على وجهة نظر مؤيديه :

ا — لا خلاف في أن كثيراً من كتابات الشيخ « عثمان » في كتابيه « إحياء السنة ، وحصن الأفهام » تشير إلى نزعات سلفية واضحة عنده ، بما تضمناه من إتجاه علمي وإصلاحي غيور ، ودعوة قوية لإحياء السنة ، وإخماد البدعة ، وتحصين أفهام المسلمين من كل انحراف ، ورد كل مبتدع ، والعودة بالأمة الإسلامية إلى مصدري دينها الكتاب والسنة ، في الأصول والفروع ، وتبدو هذه النزعة كذلك في كثير من كتبه ، غير هذين الكتابين ، مثل كتابه « وثيقة الإخوان لتبيين أدلة وجوب اتباع الكتاب والسنة

(١) في كتابه « الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقية » .

(٢) في كتابه « الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية » .

(٣) في تقديمه لكتاب « إحياء السنة وإخماد البدعة » للشيخ عثمان دان فوديو ص : ج ، ى . من مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر .

والإجماع » ؛ وكتابه « بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية » فوجود إتجاه سلفي عند الشيخ « عثمان » حقيقة قائمة ، وواضحة في حركته الإصلاحية وهذا قدر لا خلاف عليه .

لكن الخلاف في مرد هذا الاتجاه عنده : هل هو التأثر بدعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » كما ذهب أصحاب هذا الرأي « توماس أرنولد » ومن تابعه ؟ وأن ذلك التأثر كان في رحلة الشيخ « عثمان » إلى الحج ؟ أم أنه تأثر بأصول ومؤثرات أخرى ؟.

ب ـ يبدو من دراسة مؤلفات الشيخ « عثمان » ، وكذا ما ألفه أخوه ووزيره « عبد الله بن فودي » ثم ابنه ووزيره « محمد بل بن عثمان » أنهم جميعاً أبدوا حنينا كبيراً إلى الحج .

وقد لاحت فرصة سانحة للشيخ عثمان للحج مع شيخه « جبريل بن عمر » حين طلبه العلم عليه ، لكن لم يأذن له أبوه فلم يحج حينها ولا بعدها ، وظل يلازمه هذا الشوق حتى الممات ، ولو كان قد تم له الحج لسجله بالكتابة ، كما سجل الرغبة فيه ، ولعرف عنه ، لكن لم يبد من كتاباته ، ولا من كتابات أخيه أو ابنه ما يشير إلى قيامه ، أو واحد منهم بالحج .

إذاً ، لم يتأت للشيخ عثمان ولا لمعاونيه ـ أخيه وابنه ـ لقاء بدعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » ولا حركته في موطنها في أرض الجزيرة .

حـ ـ أن الشيخ « عثمان » في كتاباته عن شيخه في الطريق الشيخ « عبد القادر الجيلاني » يغرق في التوسل به في أمور الدنيا والآخرة ، إلى حد يرد قول « توماس أرنولد » .

د ـ قول «توماس أرنولد» عن الشيخ « عثمان » وتأثره بدعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب أنه ـ أي الشيخ عثمان ـ أنكر الصلاة على روح الميت ، غير مفهوم ، وغير واضح في كلام الشيخ « عثمان » وتاريخه ، لا إيجاباً ولا سلبا .

لكن الشيخ « عثمان » عدّ من الأمور التي عمت بها البلوى في بلاده ، وكانت موضع نقده وإصلاحه التبرك بالصلاة على القبر ، وبناء المسجد عليه ، إذ لا يصلي على القبر ، ولا يبنى عليه مسجد للتبرك ، ولا يتمسح بالقبر أيضاً ، لأن ذلك من فعل النصارى ، ولا يدهن بالماء الذي يكون عليه ، ولا يرفع منه تراب(١) .

(١) انظر « نور الألباب » ص ١٥ ، ١٦ للشيخ عثمان بن فودى .

وفرق بين هذا الذي يقرره الشيخ « عثمان » وبين قول « توماس أرنولد » : أنكر الصلاة على روح الميت .

هـ — قول « توماس أرنولد » عن الشيخ « عثمان » أنه : استنكر المبالغة في تمجيد « محمد » نفسه فهذا يحتمل :

ا — استنكار تمجيد سيدنا محمد نفسه من أي مسلم كان .

ب — استنكار تمجيد سيدنا محمد نفسه بنفسه .

وأياما كان الاحتمال المراد ، فهذا فهم سقيم للمستشرقين .

فرسولنا « محمد » ﷺ جدير بكل تمجيد ، في حدود ما مجده الله به ، وشرعه واهتدى بهداه المسلمون : **(وإنك لعلى خلق عظيم)** (١) .

كما شهد له ربه ويكفيه شهادة ربه له ، وما كان ﷺ كذلك بالمبالغ في تمجيد نفسه ، بل يشهد تاريخه الشريف بتواضعه الجم ، وهو القائل : « إنمـــا أنا رجل منكم » (٢) و « لا تقوموا — أي له ﷺ — كما يقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضاً » (٣) .

وما كان للشيخ « عثمان » ولا لمسلم أياً كان أن يستنكر شيئاً ! ولا يوجد إطلاقاً ما يستنكر على رسولنا ونبينا « محمد » ﷺ بل هو الأسوة والقدوة ، ومقامه في نفس كل مسلم ، وفي الواقع والحقيقة أسمى من أن ينكر عليه شيء ، وحاشاه ! ! .

و — لا يبدو من كتابات الشيخ « عثمان » أي تأثر بالإمام « ابن تيمية » ولا بتلميذه « ابن القيم » ولا النقل عنهما ، وهو كثيراً ما ينقل عن غيرهما .

وبهذا يتضح أن الشيخ « عثمان » لم يحج ، وبالتالي لم يلتق بالإمام « محمد بن عبد الوهاب » ولا بأحد من دعاة حركته السلفية ، ولا تأثر بشيء منها تأثراً مباشراً .

---

(١) سورة القلم . الآية : ٤ .

(٢) قال الهيثمي : رواه أبو يعلى ، والطبراني في الأوسط ، وفيه يوسف بن زياد وهو ضعيف . مجمع الزوائد جـ ٥ . ص ١٢١ .

(٣) خرجه ابن جرير عن أبي أمامة كنز العمال جـ ٥ ص ٥٥ ، وأخرج أبو داود مثله ، كما في جمع الفوائد جـ ٢ . ص ١٣٢ .

وما ذكره « توماس أرنولد » من هذا اللقاء بالدعوة هناك ، أو التأثر بها ، وعن مظاهر هذا التأثر فغير صحيح .

الفرض الثالث :

هل يمكن أن يكون الشيخ « عثمان » تأثر بدعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » عن طريق غير مباشر ، وليكن عن طريق بعض شيوخه ، الذين ترددوا على الحرمين الشريفين ، للحج ولطلب العلم ، ولفترات طويلة ، في تلك الحقبة التي كانت دعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » فيها في دور الجهاد ، وتحادثت بها الركبان ، وتردد صداها في جنبات العالم الإسلامي ؟ .

ولدراسة هذا الفرض نرى من الضروري هنا بمكان أن نلم ببعض التعرف على بعض شيوخه ، الذين كان لهم الأثر البعيد في توجيهه وجهة الإصلاح ، لنعرف مناحي التأثير عليه واتجاهاتها :

شيوخ الشيخ عثمان دان فوديو :

من الملاحظ أن الشيوخ الذين أخذ عنهم الشيخ « عثمان » مباشرة ، كانوا — على اختلافهم — من علماء المنطقة من الفولاني ، والهوسا ، والبرنو ، وليس بينهم من هو عربي المولد ، لذا كانت بيئته العلمية محلية بحتة ، ولا يمنع هذا أن بعض شيوخه قد تلقى العلم في « الحرمين الشريفين » .

ومن الملاحظ كذلك أن الشيخ « عثمان » قد تأثر بكثير منهم ، في مناهج الإصلاح ، فضلاً عن طلب العلم ، ونذكر من هؤلاء ثلاثة أعلام كان لهم أكبر الأثر في حياته العلمية وفي حياته للدعوة والجهاد :

الأول : خاله : « محمد ثنب بن عبد الله بن محمد بن سعد » العالم المشهور في قبائل « الفولاني » بالصلاح والتقوى ، لم يترك فيها أفضل منه في العلم والصلاح ، حين خرج إلى الحرمين الشريفين ، وأقام هناك بضع عشرة سنة في خدمة العلم ، وعاد من رحلته تلك عام ١٢٠٧ هـ أي بعد وفـاة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » بسنة (١) ، ومات في طريق

(١) توفي الإمام محمد بن عبد الوهاب عام ١٢٠٦ هـ — ١٧٩٢ م . انظر كتاب « الملك عبد العزيز آل سعود » ص ٥٠ . تأليف عبد الله حسين . مطبعة التوفيق بمصر ، وانظر « عيون المجد في تاريخ نجد » ج ١ . ص ٨٩ .

عودته في قرية « أغاديس » قبل وصوله إلى موطن قبيلته ، حيث يقيم الشيخ « عثمان » وأهله ، وكانت الآمال معلقة عليه في الاستزادة من علمه وفضله .

وفضلاً عما كان لهذا الأستاذ على الشيخ « عثمان » من تأثير ، بسبب لحمة النسب والقربى ، فقد كان له أبعد الأثر بحكم أستاذيته له بالقول والقدوة ، فقد صحبه « عثمان » تلميذاً في فترة حرجة من حياته وهي فترة المراهقة ، وفيها انطبعت في نفسه كثير من صفات شيخه وسلوكه ، إذ صحبه لمدة عامين ، حصل فيهما من معارف أستاذه الكثير من العلوم .

ليس هذا فحسب بل كان هذا الأستاذ رجل دعوة يقرن العلم بالعمل ، صاحب قلب مفعم بحب العمل لدينه ، وعقل واع لخطواته على هذه السبيل ، وعرف عنه معاصروه كذلك فكانت له السيرة المحمودة ، فضلاً عن مواقفه في الانتصار للحق يؤيده ، وللمظلوم ينصره ، ولقد تأثر « عثمان » بشيخه في هذا كله ، حتى لنراه يسير على الطريق ، ولئن انقطعت السبل بالأستاذ دون الوصول إلى غاياتها ، فلقد واصل التلميذ السير حتى منتهى الغاية المرجوة ، من إصلاح الدين والمتدينين ، فصحح من الدين مفاهيمه عند الناس ، وأصلح من السلوك معوجه بجهاد الكلمة والسيف .

الثاني : الشيخ الحاج « أبو محمد محمد بن الراجي بن مودب بن جم بن عال » (١) خال « عثمان » من علماء « الفولاني » ومن أئمة علم الحديث فيهم ، جمع إلى التفوق في العلم دماثة الخلق : من الصبر ، والحلم ، وطلاقة الوجه ، ولين المعاملة ، وبذل العلم لطالبيه مع تذليل صعابه ، وقد رحل إلى الحج ، وأقام بالمدينة المنورة طويلاً يطلب علم الحديث ، ويتلقاه عن أئمته هناك حتى نقل عنهم « الصحاح الستة » ، وكان لعودة الشيخ « أبي محمد الراجي » من الحجاز أثرها العلمي والنفسي في قومه ووطنه وطلابه .

الثالث : المعلم الشيخ « جبريل بن عمر » (٢) .

لئن كان للأستاذ الأول التأثير الكبير على التلميذ « عثمان » صبياً وفي بيئته ، فإننا هنا إزاء ظروف متغيرة ، إذ رحل التلميذ « عثمان » عن موطنه بعيداً ، ضارباً في الصحراء حتى

(١) إيداع النسوخ ص ٥ ، ٦ للشيخ عبد الله بن فودى .

(٢) إيداع النسوخ ص ٤ ، ٥ ، ٦ للشيخ عبد الله بن فودى وإنفاق الميسور . ص ٥٤ ، ٥٩ لمحمد بل .

بلغ أستاذه « جبريل بن عمر » في « أغاديس » وكان « عثمان » إذ ذاك قد تخطى مرحلة الصبا وتهيأت نفسه للمزيد من العلم ، والاقتداء معاً .

وقد أسهم الأستاذ « جبريل » بتزويد تلميذه بكلا الأمرين معاً ، حتى درج به الخطوات الأولى ، ووقفه على طريق الدعاة والمجاهدين ، إذ كان الشيخ « جبريل » في الجانب العلمي أستاذاً مبرزاً بين علماء عصره في المجتمع السوداني ، وهو في علمه مثال العالم الملتزم إلى أبعد مدى بحدود مذهبه « المالكي » في الفروع ، ذاهباً في الأصول مذهب التشدد .

وهو مع هذا وذاك رحالة يجوب البلدان يعلم ويدعو ، وقد تخطى الحدود في رحلتين إلى الحجاز للحج ، وحيث كانت دعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » في أوج جهادها ؛ ويعود الأستاذ « جبريل » مفعماً بنزعات الإصلاح ، ويصب هذا في نفس تلميذه « عثمان » الذي إن فاته التأثر المباشر بهذه الدعوة الإصلاحية السلفية في موطنها فلن يفوته التأثر بها من شيخه ، ولقد هم التلميذ « عثمان » أن يصحب شيخه « جبريل » في رحلته للحج ، لولا أن الشيخ رجعه إلى أبيه ، لكونه لم يأذن له بالحج مع شيخه ، ثم عاوده بعد الحج مراراً .

كان الأستاذ « جبريل بن عمر » يتقد غيرة على الإسلام ، وتفانياً في الاشتغال بالكتاب والسنة ، وحض الناس عليهما ، بل كان أول من تصدى بالقيام لهدم العادات الذميمة في تلك البلاد ، وانتفع به خلائق كثيرون ، وتعرض لكثير من الأذى والاضطهاد في هذه السبيل ، ولم يستقم له الأمر في ذلك ، إذ طرده « الطوارق » إلى أرض « غوبر » وظل يتنقل من بلد إلى بلد ، وقد ذهب إلى الحج ، وعاد مفعماً بالحماس لمواصلة جهاده ، فوجد تلميذه « عثمان » قد بدأ حركته في الدعوة والجهاد فيها ، فبارك له جهده ، وأيده وناصره ، وكان أول من بايعه قبل الجهاد وعاونه فيه ، وكان له نعم الأستاذ والقدوة والموجه ، حتى ليرجع « عثمان » إليه فضل التوجيه إلى الدعوة ، والأمانة فيها فيقول : « فوالله لا ندري هل كنا نهتدي إلى سبيل السنة ، وترك العوائد الذميمة ، لولا تنبيه هذا الشيخ المبارك ؟ ! وكل من أحيا السنة ، وهدم العوائد الذميمة في بلادنا السودانية هذه ، فهو موجة من أمواجه » (١) .

لقد تتلمذ الشيخ « عثمان » على أستاذه « جبريل بن عمر » وكانت له نزعات إصلاحية تأثر بها كما تأثر ببعض شيوخه الآخرين ، الذين قد حجوا وعاشوا بعض الوقت في رحاب

(١) إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور . ص ٥٥ لمحمدبل .

الحرمين الشريفين ، وقت قيام دعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » بجهادها ، فتسربت منهم مؤثرات ونزعات إصلاحية مباشرة لتلميذهم الشيخ « عثمان » ، وقد يكونون بدورهم قد تلقوا هذه المؤثرات من الدعوة هناك .

لكن قد يعكر على هذا الفرض « الثالث » بعض الشيء : أنه في وقت أن حج شيوخ « عثمان » لما تكن دعوة الإمـــام « محمد بن عبد الوهاب » قامت على سوقها ، في أرض الحرمين ؛ وحتى في عهد الشيخ « عثمان » وبدء حركته ، كانت دعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » وحركته ما يزال مجالها محدوداً في أرض « نجد » ولم تصل إلى « مكة » وفتحها إلا حوالي (١٢١٨ هـ — ١٨٠٣ م) وهو تاريخ بـــدء جهاد الشيخ « عثمان » لإقامة دولة الإسلام في ممالك « الهوسا » لكن هذا لا يمنع أن يكون شيوخه قد ألموا معرفة بها ، وبجهادها وأهدافها ، وتأثروا بذلك ، وانعكست هذه الآثـــار منهم على تلميذهم الشيخ « عثمان » وبخاصة وقد تشابهت منازع الإصلاح .

الفرض الرابع :

كان ظهور دعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » في الجزيرة العربية — في القرن الثاني عشر هـ — الثامن عشر م — بمثابة بعث جديد لروح الإسلام ، التي كانت قد خبا ضوءها ، ويقظة للعالم الإسلامي كله ، الذي كان في حالة موات ديني وسياسي واجتماعي ، وكانت هذه الظروف تقتضي ضرورة قيام حركات إصلاحية ، ترد الأمة إلى دينها ، ومصادره الأصلية : الكتاب والسنة ، على اختلاف مناهج تلك الحركات ، وتقاربها أو تباعدها في الوسائل ، وكانت الأصالة في دعوة الإمام ، والصدق في داعيتها سيما مميزة لهما ، وقد مرت وإمامها بمراحل من الجهاد محصتها ، وأثبتت جدارتها ، وتردد صداها في أرجاء العالم الإسلامي ، وتسامع بها القاصي والداني ، وتحادثت بها الركبان ، وذاعت بها الأخبار ، فلم يكن ظهورها بمنأى عن الحياة والأحياء والعمران ، ولم تكن في قنن الجبال ولا في سراديب الكهوف ، ولا في أحراش الغابات ، وإنما كانت على أرض الإسلام ومنبت شجرته وحول قبلته ، ومع موسم الحج كل عام تتناقل الوفود أخبارها ، فتسري في العالم سرى الماء في العود ، فيهتز ويربو ، وتتجاوب أصداؤها في جنباته ، فتنبعث حركة من هنا ، ودعوة من هناك ، ونداء إلى الإصلاح في كل مكان .

وتبقى هي دعوة العصر ريادة وقيادة ، قامت على صداها كل الحركات والدعوات التي عاصرتها أو تلتها ، وإن اختلفت عنها في الوسائل والمناهج ، ومن هنا تبرز القيمة الأساسية للمعنى القيادي لهذه الدعوة ، في العالم الإسلامي المعاصر كله .

ونحن إذا ذهبنا ندرس مدى تأثير هذه الدعوة فيما عاصرها ، أو لحق بها من حركات هنا وهناك ، فلن نعدم الوشائج والأسباب التي تنزعها إليها بصلة أو بأكثر ، مباشرة وغير مباشرة ، من قريب أو من بعيد ، وإن غابت عنا هذه الصلات ، فلن يغيب عنا أنها كانت بالنسبة لهـــا الرائدة والقدوة ، التي حققت مراحل الدعوة متكاملة : مرحلة « الدعوة » ، ومرحلة « الجهاد » ، ومرحلة « الدولة » ، ولابد أن تلتقي معها كل دعوة تنتسب إلى الإسلام وتستمد أُصولها من الكتاب والسنة ، ومادام المصدر واحداً ، فلابد أن تتشابه الروافد ، ويبقى لها فضل السبق على ما بعدها ، وفضل الأصالة بسلفيتها ، وفضل التكامل بمراحلها واستمرارها .

وما أحوج أجيالنا المعاصرة . . وهي تطل مع العالم على « إفريقية » أن تعرف دور عقيدتها وسلفها هناك ، حتى تصير فيها على أرض ليست عنها غريبة ، وبين أُناس هم إخوة في العقيدة وأن يكون للدعوة في حاضرها زاد ، يشد من أزرها على الطريق ، وينزعها بماضيها عروق لم تنفصم ، ويطرد عنها شبح الاستشعار بالغربة ، في هذا الحقل من العالم الذي تتكالب عليه قوى الشر من كل جانب ! ، وأن يستطيع الدعاة هناك أن يعملوا بثقة ، ويجددوا روابط الأخوة على العقيدة ، ويحملوا رسالة العلم والحضارة ، وصلاً للحاضر بالماضي ! ! .

إن « إفريقية » اليوم ميدان لسباق مسعور من المذاهب والنحل ، تسعى فيها كالأفاعي ، تكسب كل يوم أرضاً ، وتضع قدماً ، وتثبت راية عمياء ، وتجمع صفاً حولها ، وكثير من ذلك يتم على حساب الإسلام وداره هناك .

وما أحوجنا لمضاعفة العمل ، والجهد الواعي للدعوة هناك ، وسط هذه الأمواج المتراكمة والعاتية ، ولـيكن لنا من سلفنا الصالح القدوة في جهادهم ، والله من وراء القصد خير معين ، وهو ولي التوفيق .